

البطء استفادتنا من الرقى الطبيعي . على أنه وجد بالبحث حتى الآن أن جميع الأمم المتوحشة تتبع نظاما واحداً في تربية أفرادها مهما تعددت قارات سكنائها ولذا لا نحتاج إلى أكثر من فصل واحد لشرح ذلك النظام

أما الأمم الأخرى التي تدرجت إلى أعلى في سلم التمدن فأنها اتخذت نظاماً متبايناً ولذا اضطررنا إلى أن نفرّد لكل أمة منها فصلاً على حدة

اصبر فهيمى الفطار

السلطة والحرية

معناها . نشأتها . أثرها في التربية

رُسُو — يقول الدكتور جوستاف لوبون في كتابه سر تطور الأمم « الاعتقاد قوة لا يغالبا الا قوة اعتقاد مثلها . فليس للايمان عدو الا الايمان ، والنصر حليفه ، متى كانت القوة المادية التي تعترضه خادمة لشعور ضعيف ، ومعتقدات تولاها الوهن . » وفي رأى أن هذا يكشف لنا الحجاب عن أسرار تلك القوى المعنوية ، التي امتاز بها المصلحون في العالم ، فكان لهم منها جيوش لا يدرك الطرف مذاها ، ولا ياحقها الفناء ، يحدوها النصر ، وتمشى على أثرها الأفكار الجديدة ، وينبعث منها النور ، فتنجاب الظلمات ، ويتجلى وجه البسيطة مشرقاً باسمها ، اغتباطاً بعصر جديد ، وعهد سعيد . وفي استطاعتنا أن ندلى بالحجج ، ونضرب الامثال ، قديمها وحديثها ، غير أننا نؤثر الاجمال ،

ورب إشارة دالة .

ان أول جملة افتتح بها رسو كتابه « أميل » هي « أن الأشياء كلها خيرة ، عند ما تصنعها يد القدر الألهية ، فاذا تناولها يد الإنسان أخذت في الانحطاط ، وسارعت الى الشر . » ولا شك أن هذا ضد ما كان يعتقد الناس قديماً ، وعلى هذا الاعتقاد بنى رسو مذهبه ، وبقدر رسوخه في نفسه بلغ نجاحه من غير نظر الى خطئه أو صوابه لست أريد أن أتمرض للرجل في جملته ، وأنظر اليه من مناح كثيرة ، وأصدر بعد ذلك الحكم له أو عليه ، فهذا عمل الناقد من كتاب السير ، ولكني سأستمد من أفكاره ، وأخذ من آرائه قليلاً ، مما له رابطة بموضوعنا .

رأى رسو أن المدارس أحوج ما تكون الى رجل مصلح ، يرشد المعلمين الى طبيعة الإنسان ، ويدعوهم الى دراسة الطفل ، وملاحظة ميوله وغرائزه ، وإصلاح طرق التعليم ، وتغيير مناهجه ، فأخذ على عاتقه هذا الحمل الثقيل ، ووجه اليه كل ما أوتي من قوة ، وأذن في الناس أن قد آن أوان الإصلاح ، ورفع لواء الحرية ، واعتبر المدارس سجوناً ، وحمل عليها وعلى المدنية حملة دكت صروح « الجمعية الفرنسية » ونادى باتباع « الطبيعة » والرجوع الى العصور الأولى : أيام كان الإنسان هائماً على وجهه ، يسكن الكهوف ، ويأوى الى المغارات ، ويأكل من نبات الأرض ، وأثبت أن المدنية أسر لا يطاق ، واستعباد لا يحتمل ، وأهاب بالمدرسين أن يدعوا للتلاميذ الحرية في كل شيء .

وأن يربو على « مقتضى الطبيعة » ، وأصدر كتابه « أميل » فأحدث ثورة فكرية ، كانت على ما يقال بذور الثورة الفرنسية ، وبين للناس كيف ينبغي أن يربي الصبيان ، وأراهم مثالا — زعمه حسنا — في « أميل » ، فترك له الحرية التامة ، وعهد به للقوى الطبيعية ، والميول الشخصية ، فنشأ متقلبا لا يعرف واجبا ، ولا يفهم معنى للطاعة ، لا يطلب شيئا من أحد ، ولا يشعر بواجب عليه لأحد ، فهو بمعزل عن الجماعة ، لا يعتمد الا على نفسه ، ولا يحترم غيره من بني الانسان ، ولا يخضع لقوانين الاجتماع ، ولكن اتبع هواه ، وفعل ما سولت له نفسه ، وانغمس في اللذات ، وزعم أن هذه حرية ، والحرية كل شيء لديه .

يقول رسو « لقد عقدت النية على أن أخلص ولدى من جميع القيود ، وأن أترك له الحرية التامة ، ليستعمل ما وهب من القوة ، حتى تنمو جميع ميوله الطبيعية . ولهذا الطريقة فائدتان ؛ أما أولاها فهي أنني نجيت عقله الفتى ، من الغش والغرور ، والغضب والحسد ، وبالاختصار ، من سائر الرذائل التي تنشأ من الاستعباد ، والتي لا مفر منها ، اذا نحن آثرنا الخضوع ، والطاعة العمياء ؛ وأما الثانية فنمو جسمه في ظلال الحرية ، بما يقوم به من الأعمال البدنية ، التي تدفعه اليها غرائزه . » ويقول « لا تأمر تلميذك أن يفعل أى شيء في العالم — أى شيء مطلقا — ولا تدعه يتخيل أن لك عليه سيطرة . » ولا شك أن هذا غلو ممتوت ، ومجاوزه حد الاعتدال ، لان رسو أراد أن يفر

بتلميذه من أسر المدرسة ، واستعباد (الجمعية الفرنسية) ، فأوقعه في أسر الطبيعة ، وساقه الى استعباد يبقى ما بقي الدهر . وان شئت البرهان ، فأليك ما يقول (أميل) الذي نشأ في ربوع الحرية التامة ، وترعرع في حجر الطبيعة قال (ليس هناك من استعباد سوى استعباد الطبيعة ، وما بنو الأنسان الا مجرد وسائل في يدها .) (ماذا أفعل بالحرية اذا من الزمان بها على .) (لقد سلبت الأرادة ، فليس لي سوى أن أتبع ارادة غيري .)

هذا هو (أميل) ، الذي رباه رسو ، وعامته (الطبيعة) ، وحبب اليه الاستقلال ، وعدم الاعتماد على أحد من بني الأنسان . ألا ينفطر قلب رسو ، ويتقطع كبده ، اذا سمع هذه الشكاية المرة ، وعرف ذلك الذل المهين ؟

وغريب جداً أن رسو هذا — وهو رسول الحرية ، وبشير الاستقلال — يلجأ الى الشدة المتناهية ، ويدعو الناس الى أن يحملوا أبناءهم العاقبة الطبيعية لأعمالهم ، وكثيراً ما تكون وبالاً على الناشئين . واليك ما يقول في هذا الموضوع (اذا كسر «الولد» زجاج النافذة ، فدفع الريح تهب في حجرته ليلاً ونهاراً ، ولا تبال اذا نال منه البرد ، فغير أن يقاسى آلام الداء على أن يفعل مثل هذه الأشياء ، فاذا كسر الزجاج مرة ثانية ، فعامله بطريقة أخرى ، وقل له بهدوء وسكينة ومن غير غضب ، (ان هذه النوافذ لي ، وليس لأحد أن يكسرها ،) وبعد ذلك اسجنه في حجرة مظلمة لا نوافذ لها . وفي مثل هذه الحال ،

قد يلجأ الى البكاء والعمويل ، فاذا فعل ، فلا تعره أية عناية ، ولا يهيجن
بكاؤه فيك الرحمة .) ويقول (دعه « التلميذ » يحمل هذا النير الثقيل ،
الذي تلقيه الطبيعة على عاتقه — نير الضرورة — النير الذي تسوقه
اليه طبيعة الأشياء ، لا تقلب الرجال ، واجعل العنان الذي يكبح جماحه
الضرورة ، لا السيطرة)

وجملة القول أن كتب رسو مملوءة بالتناقض ، مدعاة الى الخطأ ،
حتى لقد قال بعض الناقدين (أنه لا يعرف مؤلفاً أضر بالعالم من هذا
المؤلف ، الذي كان يهرف بما لا يعرف .) ولكن لو رجع بنا الخيال
الى زمن رسو ، وطاف بنا في حجر الدراسة ، ومعاهد العلم حتى نرى
ما كان يقاسيه الصبية في ذلك الحين ، بين جدران المدارس وخارجها ،
لتأسنا له العذر ، وأكبرنا فيه الشجاعة والأخلاص وأن الذي حمه على
مجاورة الحد ، هو شديد رغبته في الإصلاح ، وغرامه بالقضاء على
النظام القديم . وانا مع هذا لتعريف له بالفضل ، وتقزله بالسبق ،
ونقول مع القائلين ، أنه واضع أساس علم النفس الحديث ، وكفى
بذلك فخراً

محمد علي المجذوب

